جورج دورليان

صلاح ستيتية والتوازن الصعب بين الفرانكوفونية والأصالة

ثمّة ميزةٌ في أعمال صلاح ستيتيّه النثرية هي أنّها لا تصلحُ للاستعمال – أو الاستهلاك – الأكاديمي. فهي ليست تحليلاتٍ أو دراساتٍ أو أبحاثاً تحمل منهجاً أو طرائقيات. أمّا موضوعُ هذه الكتابات فواحدٌ ومتعدّدٌ في آن، لدرجةِ أنّه يسهلُ القولُ بأن لا موضوعَ ظاهراً ومحدّداً يجمعُها سوى تلك الرغبةِ الجامحةِ في سبرِ أغوارٍ تزداد ظلمتُها كلّما انكشف بعضٌ من جوانبها...

إنها كتاباتٌ من الصّعب ضبطُها وبالتالي تصنيفُها في نوع... فصاحبُ الكتابات هذه يبقى شاعراً مهما تعدّدت أعمالُه غيرُ الشعريّةِ وتكاثرت... فهي ملاحظاتُ شاعرٍ على الشعرِ والأدب، تأمّلاتٌ على الإبداع والخلق، رحلةٌ أخرى من تلك الرحلاتِ التي اعتادَ الشاعرُ القيامَ بها وقد ارتأى أن يستبدلَ لهذه المرّة الوسيلةَ الشعريّةَ بوسيلةٍ أخرى لا تقلّ شاعريّةً، أي قدرةً على الكشف... كتاباتٌ يستقرُّ فيها الشعرُ موضوعُ الفعل بدون أن يستقيلَ من دوره كفاعل.

ففيما يوهمنا بأنّه ذاهبٌ إلى «أور» حيث بدايةُ كلّ شيء وسببُه، إذا به يعلنُ في منعطفٍ من رحلته الطويلةِ أنّه لم يره، بل حلم به ولا يزال... «أور» هو المكانُ الجوهريُّ، موطنُ الشعر، نقطةُ الابتداءِ والأصل... فالانتقالُ إليه هو كالانتقالِ إلى «الحالةِ الشعريةِ» كما يقول سعيد عقل أو كالانتقالِ من «الكلام المباشر» إلى «الكلامِ الجوهري» على حَدّ تعبيرِ مالارميه.

بحثٌ عن الفضاء الأوّلي للشعر وللمعنى حيث بإمكان «الغايةِ تبريرُ الوسيلة» لأنّ «الغاية هنا بلا دنس» ولأنّ الليلَ في «أور» أسودُ وأبيضُ في آن، فالنّارُ لا تُصنعُ إلاّ بالثلج!... مثلما يموتُ، عند أبولينير، الخريفُ المريضُ في غنى الثلج والثمار الناضجةِ... فصلاح ستيتية، مع قلّةٍ من أمثاله، يصرُّ على الاعتقادِ بأنّ الخلاصَ موجودٌ حيثُ تختبئ الأصولُ والجذورُ... وبالتالي جوهرُ الذات. وللذاتِ كغايةٍ وسيلةٌ وحيدةٌ هي اللّغة، وعندما تتماثلُ الغايةُ والوسيلةُ يصبحُ «التمهّنُ على اللغة تمهّناً على الذات أو انعكاساً كاشفاً له».

لعلّ هذه هي الطريقُ إلى «أور»...

إلاّ أنّ الطريقَ التي يسلكُها وصولاً إلى هذا المكان الأصليّ ليست جغرافيّةً ولا تاريخيّةً ولا تراثيّةً بالمعنى الضيّق للكلمة... إنّها شبيهةٌ بالطرقات التي يسلكُها أبطالُ الحكايات الخرافية السذّجُ ولكن العميقو الإدراكِ بخبايا الكونِ والأقدار. لذا لا يُقاسُ نجاحُه أو فشلُه بمدى اقترابه منه وبلوغهِ الهدفَ المتواري – إذ إنّ «أور» سرابٌ متراجعٌ دوماً – بل يُقاسُ بما راكمه من صورٍ وأفكارٍ – من كنوزٍ – نثرتها على هذهِ الطريقِ تجارب منْ سبقَه من حجّاج «أور». نجاحُه مرهونٌ في أخذه أكثرَ الدروبِ ثقلاً وغنىً... وطولاً: الدربُ الذي طبعتْه خطى كبار مبدعي الكون... من نوفاليس إلى بونفوا مروراً بجلال الدّين الرومي والحلاّج وأيضاً بمن نسي أن يختُمَ عملَه ويوقّعَه فاستحالَ العنوانُ مرادفاً للاسم مثلُ كتاب **ألف ليلة وليلة**... إنّه حقّاً أكثرُ الدروبِ بعداً لأنّه ليس مستقيماً... «أور» طريقٌ، ربّما لا نهايةَ لها؛ إنّها «الطريقُ» بامتياز، تلك المؤدّيةُ إلى اللامكان حيث يمكننا فحسبُ تخيّلُ التماس النهايات بالبدايات.

احتفالُنا اليومَ بشاعرٍ تذكّرَهُ غيرُنا وكافأَه... هو نموذجٌ لقبولنا بِخطاب الغرب عنّا!

يصطحبَ ستيتية، في مسعاهُ الوجودي إلى «أور»، إلى «كهفِ الأصول»، إلى «شعلةِ الكهف»، رامياً أعمى، أو ربّما كان هو نفسه ذاك الرامي الأعمى. فالمهارةُ هنا أن نرميَ السهامَ لا أن نصيبَ. فالساحةُ مليئةٌ بالطرائدِ التي لا تراها إلاّ بصيرةُ الأعمى لا بصرُ الذين أعمَتْهم الوقائعُ والماديات. ألم يقلْ إنّ مادّةَ الشعرِ هي في إيقاعاتِه المتوافقة وبريقِ لمعانِه؟. ولصلاح ستيتية في هذا المجال كلامٌ على علاقة الواقع باللّسان، وتأمّلاتٌ قد يستغرقُ الغوصُ فيها وقتاً طويلاً دون بلوغ حقيقةِ ماهيّتها؛ ذلك لأنّ كلامَه على هذهِ العلاقةِ «مُبهمٌ وغامضٌ» كما يؤكّده هو (الرامي الأعمى).

في بحرِ هذه التأمّلاتِ، تحتلُّ الثقافةُ والحوارُ – إمّا جهراً وإمّا تورية – مكانة محوريّةً؛ «فكلُّ ثقافةٍ هي بحدّ ذاتها حلمُ توحيد، بحثٌ عن التوحيد»: هذا ما يقولُهُ ستيتية في معرض تأكيده أنّ الحوارَ – وحوار الثقافاتِ بالتحديد – هو أيضاً وفي الأساس حلمٌ بالتوحيد. إلاّ أنّ عقباتٍ دون هذا التوحيد تجعل من حوار الثقافاتِ استلاباً يخسرُ فيها من يسكنُ منزلةَ الآخرِ أملَه ليسقُطَ في اليأس. ولكن ما يوحّدُ بين المحاورين هاويةٌ واحدةٌ. فيصير الحوارُ محاولةَ استكشافٍ لطبيعةِ الهاويةِ التي تحيط بالآخر ولإرادته في التقدُّم نحوها والنظر إلى قعرها بانحناء.

في بحثه عن كنْهِ الشعرِ والإبداع – وهو بحثٌ محفوفٌ بالخطر – ليس غريباً أن تحتلّ ثيماتُ الموت والظلمةِ والدوّامةِ

ونقيضاتُها، ثيماتُ الحياةِ والنورِ والثباتِ، مواقعَ مهيمنة في جدليّاتٍ صعبةٍ إنْ لم تكنْ مستحيلةً، يعبّر عنها بصورٍ قد يراها «النثريون» مثلُنا في غاية البساطة: حوارُ التربة والشجرة، الزيتُ والزيتونُ، سرُّ القنديل، العصفور والطيرانُ إلخ... كيف لا وصلاح ستيتية نفسُه يقفُ على حافةِ هاويةٍ تكثّفت فيها التناقضات، في نقطةِ تدافُعِ الثقافاتِ كلِّها، في نقطةٍ ضيّقةٍ لا تتّسعُ حتى لواحدٍ، إلاّ أنّها المكانُ الوحيد الذي يمكنُ الإطلالةُ منهُ على الكلّ.. إنّه مكان الفرنكوفونيّة حيثُ يلتصقُ خطرُ الاستلاب بفسحة الإطلالة المنيرةِ على الغير. توازنٌ متقلقلٌ على صورةِ توازننا الاجتماعيِّ الصعبِ ولكن المحتّم...

لذا لا أستغربُ عودتَهُ المتكرّرةَ كرجعِ الصدى إلى ادغار آلنْ بو أو إلى صورٍ ترجعنا إلى هذا الكاتبِ الذي بنى أعمالَهُ على تخوم الواقعِ والخيال، على الحدودِ المنتهيةِ للواقعيِّ والمتاخمةِ للغرائبيّ. أتذكّرُ قصّتَه «هبوطٌ في المايلستروم» التي تدورُ أحداثُها عند حدودِ الكونِ في أبعدِ نقطةٍ من القطب الشمالي حيثُ، من حينٍ لآخر، تقومُ دوّامةٌ بحريّةٌ مفاجئةٌ لتبتلعَ البواخرَ والناسَ إلى غير رجعةٍ. رجلٌ واحدٌ ينجحُ، بلعبةِ توازناتٍ دقيقةٍ، في التمكّن من الدوّامةِ المميتةِ فيعود إلى سطح الماءِ بعدما شاهد ما في القعر من أسرارٍ. هنا اكتساب المعرفة لا يقودُ إلى الموتِ كما في كلّ القصص، من التوراة إلى الرّجل ذي اللحيةِ الزرقاء مروراً بالعديد من سير **ألف ليلة وليلة**. يعود هذا الصيّاد إلى الحياةِ وقد علاَ الشيبُ رأسَه دلالةً على اكتسابه المعرفةَ. فإذا كان الموتُ – أو الاقترابُ منه – مقياسَ المعرفةِ بالنسبة إلى إدغار بو، فهو أيضاً مرجعيّةُ الشعرِ بالنسبة إلى ستيتية. لا شعر بدون الموت. لكنّ هذا الذي انتصرَ على الموتِ لا يمكنُهُ إيصال ما حصل له إلى الآخرينَ إلاّ إذا صعد بهم إلى قمّةِ جبلٍ عالٍ ليمتلكهم دُوارٌ في اللّحظة نفسِها التي تبدأ الدوّامةُ في البحر، حينها يقصُّ عليهم تجربتَه الغريبةَ فيفهمونه ويصدّقونه. إنّ السيطرة على الدوار الداخليِّ وحدَها قادرةٌ على جعلنا نرى ونفهمُ الهاويةَ والدوّامةَ اللتين تحيطان بنا. «فالطبيعةُ – كما يقول ستيتيّة – هاويةٌ، أمّا قوّةُ الإنسان فتكمنُ في مقاومتِهِ لدوار الهاويةِ والحدِّ من جاذبيّةِ الهوّةِ التي فيَ داخلِهِ.»

للهوّةِ هذه أسماءٌ عديدةٌ ومختلفةٌ، منها الاستشراقُ والتثاقفُ. نقتربُ هنا من معضلةِ المثقّفِ العربيِّ اليوم وفي محيطه العربيِّ بالذات: رفضُ أو قبولُ صورةِ العربيّ التي رسمها المستشرقون. ففي مرحلة تقوقُعِ العربِ على ذاتهم وفقدانِهم لوسائل تنقّلهم وأدواتِها – كما يقول ستيتية – في الجغرافيا الثقافية العالمية، أبمقدورهم تجنُّب القبول بالصورةِ التي يمدُّها المستشرقونَ والمستعربونَ عن العربيّ؟... هنا يلتقي ستيتيّة مع تودوروف الذي لاحظ في مقدّمته لكتاب **الاستشراق** لإدوارد سعيد، أنّ خطاب الاستشراقِ في الغربِ لا يقابله خطابُ «الاستغراب» في الشرقِ... ففي الشرق وفي العالم العربيِّ والإسلاميّ لا نزال نرفض الآخر دونما إثباتٍ للذات.

يحاولُ صلاح ستيتية الردَّ على هذا التساؤل الذي يطرحُه هو بنفسه وعلى نفسه، فيرى أنّ في الأشكال الجوهريّةِ التي خلّفتها الثقافةُ العربيّةُ تصوُّراً للعالم يتخطّى اللّغةَ وعناصرَها من صوائت وصوامت ومقاطعَ لفظيّة وأوزان... كما يَرى أنّ الشعرَ ليس مجرّدَ زائدةٍ فطريّةٍ للغةٍ ما، يمكنُ معالجتُه دلالياً وصوتياً. فللشعر هيكليّةٌ متواريةٌ غيرُ معلنةٍ وغيرُ مرئيّةٍ، إنّها الفلسفةُ، أي علاقةُ الشاعر بالكون. هذا الشكلُ الجوهريُّ المجرّد، هذا التصوُّرُ للعالم، هذه العلاقةُ بالكون، هي الإرثُ الذي خلّفته الثقافةُ العربيّةُ. وهذا الإرثُ يمكنُ نقلُهُ إلى ثقافات العالمِ وبلغات العالم.

موقفٌ صعبٌ ودقيقٌ....

ففي عالمٍ عربيٍّ متخم بالعموميات الفارغة، يشدُّه التراكم الكمّي لا التهذيبُ النوعي، ويتشدّق بالترداد المملّ لشعاراتٍ – لم تعُد تقنعُ حتى مطلقيها – متلذّذاً بكتابتها على قماشاتٍ غليظةٍ تشوّه جادات مدننا وشوارعَها.... في عالم عربيٍّ كهذا لا أرى لدقّة موقف ستيتيّة ورهافته مكاناً. فالذي عرَفَ أن يتوقّفَ عند الليلةِ الواحدةِ بعدَ الألفِ ليدخُلَ من الحدود المنتهية للقصّةِ إلى داخل الخيالِ والعقلِ العربيّينِ بحثاً عن الشكلِ الجوهريِّ الذي يؤسّسُ خصوصية فلسفةِ العربيّ، هو إنسانٌ من القرن العشرين يعي مأزقَه الحضاري ويحاولُ الولوجَ إلى ذاته من أكثرِ المواقعِ دقّةً، فيما مواطنوه لايزالون يسبحونَ فيَ مستنقع الليالي الألف.

لنعد إلى «أور» الذي حلُمَ به. إنه مكانٌ ملتبسٌ، «موطنُ قوّة الكون»، أي مرتكزها، و«حاضرةٌ خياليةٌ على مفترق الأزمنةِ والمسافاتِ». «أور» هذا الموجودُ في تخوم التاريخِ والجغرافيا، لعلّه المكانُ الوحيدُ الذي منَه ندخُلُ من جديد عالمَ اليوم بعدما خرجنا منه – أو أخرجنا كما يصرّ البعضُ على القول – في غفلة من زمن صار سحيقاً.

لم يكن همّي أن أعيدَ قراءةَ ما كتبهُ صلاح ستيتية حول الشعر والثقافة بلغة أقلّ قوّة ودقّة وجمالاً من لغة صاحب **الرامي الأعمى وحَمَلة النار والليلةُ الواحدةُ بعد الألف وأور في الشعر**، إلخ... بل سعيتُ أن أتلمّسَ ما دفع به إلى هذه المغامرةِ، خاصة وأنّ في تجربته ما يعكسُ قلقَنا وتردُّدَنا وشكوكَنا.

كلمةٌ أخيرةٌ لا بدَّ منها...

الشاعرُ الذي نحتفلُ به اليومَ لأن غيرنا تذكّره وكافأه بجائزة... هو نموذجٌ لقبولنا بخطاب الغرب وبالصورة التي يرسمها عنّا... هذا الشاعرُ والمفكّرُ ليس سعيداً – على ما أظنّ – لأنّ اسمَه أُدرجَ في برامجَ احتفاليةٍ مختلفةٍ...

فسعادتُه الفعلية هي يومَ يرى أعمالَه الكاملةَ ملحوظة في برامج أقسام الآدابِ في جامعاتنا... بذلك يمكنه نقلُ قلقهِ إلينا وإرساء أسسِ تفاعلٍ نحنُ بأمسِّ الحاجة إليه.

الفرنكفونيّة حافةُ هاويةٍ: فيها يلتصق خطَرُ الاستلاب بفسحة الإطلالة على الغير